سُورةُ عَبَسَ
من آية (17) إلى آية (42)
الجزء الثاني

المعنى الإجمالي من الآية (1) إلى الآية (42): افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بمُعاتَبةِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عِتابًا رقيقًا، فقال: قَطَّبَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَجْهَه، وأعرَضَ؛ بسَبَبِ مَجيءِ الرَّجُلِ الأعمى إليه، وهو مَشغولٌ بدَعوةِ رَجُلٍ مِن أشرافِ قُرَيشٍ، وما يُدْرِيك -يا مُحَمَّدُ- لعَلَّ هذا الأعمى يتطَهَّرُ مِن ذُنوبِه بما يتعَلَّمُه مِنَ القُرآنِ منك، أو يتذَكَّرُ؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما يَسمَعُ مِنَ القُرآنِ؟!

ثمَّ فصَّل اللهُ تعالى ما كان مِن نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: أمَّا الَّذي استَغْنى بمالِه وجاهِه عن الإيمانِ، وأعرَضَ عن هَدْيِك، فأنت تتعَرَّضُ له، وتُقبِلُ عليه، وتجتَهِدُ في وَعْظِه؛ رجاءَ هِدايتِه للحَقِّ، وأيُّ ضَرَرٍ عليك إذا لم يُسْلِمْ ويتطَهَّرْ مِن كُفْرِه وذُنوبِه؟! وأمَّا هذا الرَّجُلُ الأعمى الَّذي جاءك يَسْعى مُجتَهِدًا في الوُصولِ إليك؛ طَلَبًا للعِلْمِ وسَماعِ الحَقِّ، وهو يَخافُ اللهَ تعالى، فأنت تُعْرِضُ عنه!

ثمَّ قال تعالى: كَلَّا، لا تَفعَلْ ما فعَلْتَ -يا محمَّدُ- إنَّ آياتِ القُرآنِ تذكيرٌ للنَّاسِ جَميعًا، فمَن شاء مِن النَّاسِ ذَكَر هذا القُرآنَ، فاتَّعَظَ وعَمِلَ بما فيه، وهذا القُرآنُ الكريمُ مَكتوبٌ في صُحُفٍ مُكَرَّمةٍ عِندَ اللهِ تعالى، عاليةٍ رفيعةِ القَدْرِ، مُطَهَّرةٍ مِن كُلِّ دَنَسٍ وعَيبٍ، بأيدي طائِفةٍ مِنَ الملائِكةِ ذَوي خَلْقٍ حَسَنٍ وأخلاقٍ جَميلةٍ، كثيري الخَيرِ والطَّاعةِ والإحسانِ.

يبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن نِعَمِه على خَلقِه، وموقفهم منها، فيقولُ: أُهلِكَ الإنسانُ، فما أشَدَّ كُفْرَه باللهِ الَّذي خَلَقَه!

مِنْ أيِّ شَيءٍ خَلَقَ اللهُ الإنسانَ؟ خَلَقَه اللهُ مِن ماءٍ قَليلٍ -وهو المنيُّ- فقدَّره في بَطْنِ أُمِّه أحوالًا وأطوارًا في الخَلْقِ، وهَيَّأه لِما يَصلُحُ له مِنَ الأعضاءِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ والأشكالِ، ثمَّ سهَّل اللهُ له طَريقَ الخُروجِ مِن بَطْنِ أُمِّه، وطريقَ الخيرِ والشَّرِّ، ثمَّ قَبَض اللهُ رُوحَه عِندَ انقِضاءِ أجَلِه، وجَعَل له قَبْرًا يُوارَى فيه بَدَنُه؛ إكرامًا له، ثُمَّ إذا شاء اللهُ بَعَثَ الإنسانَ بعْدَ مَوتِه، وأحياه يومَ القيامةِ؛ لِيُجازِيَه على أعمالِه.

ثمَّ يَزجُرُ اللهُ سُبحانَه الإنسانَ لتقصيرِه، فيقولُ: كَلَّا، لم يَقُمِ الإنسانُ بكُلِّ ما فَرَض اللهُ عليه!

ثمَّ يذكُرُ سُبحانَه جانبًا مِن نِعَمِه، وكيف هيَّأ للإنسانِ طَعامَه، فيقولُ: فلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى طَعامِه مُتَفَكِّرًا في أسبابِ حُصولِه؛ أنَّا أنزَلْنا ماءَ المطَرِ مِنَ السَّحابِ، ثمَّ شَقَقْنا الأرضَ بخُروجِ النَّباتِ، فأنبَتْنا فيها

أنواعَ الحُبوبِ، والعِنَبَ، وأنبَتْنا قتًّا رطبًا تُعْلَفُ به البهائمُ، وأنبَتْنا الزَّيتونَ، وأشجارَ النَّخيلِ، وبَساتينَ ذاتَ أشجارٍ غَليظةٍ عَظيمةٍ، وأنواعَ الفَواكِهِ، والعُشْبَ الَّذي تأكُلُه الأنعامُ؛ مَنفَعةً لكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم، تتمَتَّعونَ بها في الحياةِ الدُّنيا.

يختمُ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالحديثِ عن أحوالِ النَّاسِ يومَ القيامةِ، فيقولُ: فإذا جاءت القيامةُ بصَيْحَتِها العَظيمةِ الَّتي تُصِمُّ الآذانَ؛ مِن شِدَّةِ صَوتِها، وذلك واقِعٌ يومَ يَهرُبُ كُلُّ إنسانٍ مِن أخيه، وأُمِّه وأبيه، وزَوجتِه وأبنائِه؛ لكُلِّ واحدٍ مِن أولئك الأقرِباءِ يومَ القيامةِ أَمْرٌ عظيمٌ يُهِمُّه ويَشغَلُه عن غَيرِه!

وُجوهُ المؤمِنينَ في ذلك اليَومِ مُضِيئةٌ مُشرِقةٌ، ضاحِكةٌ مُستَبشِرةٌ، ووُجوهُ الكافِرينَ يومَ القيامةِ يَعْلوها غُبارٌ وتَغْشاها ظُلْمةٌ وسَوادٌ، أولئك هم الكَفَرةُ الفَجَرةُ.

وجّهي لنفسك ثلاثة أسئلة، وأمعني التفكير فيها، وقفي عندها، بإذن الله ستهتدي للصراط المستقيم.

■السؤال الأول: مَن خلقني؟ ■السؤال الثاني: لِمَ خُلِقت؟ ■السؤال الثالث: إلى أين المصير؟

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ ﴿17﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا نَبَّه اللهُ تعالى على عُلُوِّ القُرآنِ المكتوبِ، وجَلالةِ مِقدارِه، وعَظَمةِ آثارِه، وظُهورِ ذلك لِمَن تدَبَّرَه وتأمَّلَه حَقَّ تأمُّلِه؛ عَقَّبَه بقَولِه ناعيًا على مَن لم يُقبِلْ بكُلِّيَّتِه عليه، داعيًا بأعظَمِ شدائدِ الدُّنيا -الَّتي هي القَتلُ- في صيغةِ الخَبَرِ؛ لأنَّه أبلَغُ

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) أي: أُهلِكَ الإنسانُ، فما أشَدَّ كُفْرَه باللهِ الَّذي خَلَقَه. موسوعة التفسير

قال ابن جُزَي: (قُتِلَ الْإِنْسَانُ دعاءٌ عليه، على ما جَرَت به عادةُ العَرَبِ مِنَ الدُّعاءِ بهذا اللَّفظِ، ومعناه تقبيحُ حالِه.

وقال ابنُ جرير: (في قَولِه: أَكْفَرَهُ وجهانِ؛ أحدُهما: التَّعَجُّبُ مِن كُفْرِه مع إحسانِ اللهِ إليه، وأياديه عِندَه. والآخَرُ: ما الَّذي أكفَرَه؟ أيْ: أيُّ شَيءٍ أكفَرَه؟).

كما قال تعالى: وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [إبراهيم: 34] .

وقال سُبحانَه: وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ [الحج: 66] .

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ﴿18﴾

(مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) أي: ما الشَّيءُ الَّذي خَلَق اللهُ الإنسانَ منه. موسوعة التفسير

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: مِن أيِّ شَيءٍ خَلَقَ الإنسانَ الكافِرَ رَبَّه، حتَّى يتكَبَّرَ ويتعَظَّمَ عن طاعةِ رَبِّه، والإقرارِ بتوحيدِه؟).

قال السعدي: (قال تعالى: قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ لنِعمةِ اللهِ! وما أشَدَّ مُعانَدَتَه للحَقِّ بعدَ ما تبَيَّنَ! وهو ما هو؟! هو مِن أضعَفِ الأشياءِ، خَلَقَه اللهُ مِن ماءٍ مَهينٍ!).

كما قال تعالى: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ [الطارق: 5 - 8] .

﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ ﴿19﴾

(مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ) أي: خَلَق اللهُ الإنسانَ مِن ماءٍ قَليلٍ -وهو المنِيُّ- فقدَّره في بَطْنِ أُمِّه أحوالًا وأطوارًا في الخَلْقِ؛ نُطفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضْغةً، إلى أنْ تَمَّ خَلْقُه، وهَيَّأه لِما يَصلُحُ له، ويَليقُ به مِنَ الأعضاءِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ والأشكالِ. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: أنَّه لو فَكَّرَ الإنسانُ في نفْسِه لَزَجَرَه ما يَعلَمُ مِن عجائبِ خَلْقِها عن كُفْرِه.

قال السعدي: خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه، وسواه بشرا سويا، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة.

أيها المستغني عن الذكر هل كنت وأنت جنينا ضعيفا قادرا على الخروج بنفسك؟

ثم خرجت فاستغنيت وتقويت أيها الانسان ونسيت ربك وذكره وشكره وآمره ونهيه.

قال-Y-:(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ)[يس:77].

كما قال سبحانه وتعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [المؤمنون: 12 - 14] .

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطْنِ أُمِّه أربعينَ يومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مِثْلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا، فيُؤمَرُ بأَربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقِيٌّ أو سَعيدٌ، ثمَّ يُنفَخُ فيه الرُّوحُ))رواه البخاري.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ ﴿20﴾

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) أي: ثمَّ سهَّل اللهُ للإنسانِ طَريقَ الخُروجِ مِن بَطْنِ أُمِّه، وطريقَ الخَيرِ والشَّرِّ. موسوعة التفسير

وقال البِقاعي: (يَسَّرَهُ أي: سهَّل له أمْرَه في خروجِه، بأن فتَح فَمَ الرَّحِمِ، وألْهَمَه أن يَنتكِسَ، وذلَّل له سبيلَ الخَيرِ والشَّرِّ، وجعَل له عقلًا يَقودُه إلى ما يسَّر له منهما).

وقال السعدي: (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ أي: يسَّر له الأسبابَ الدِّينيَّةَ والدُّنيويَّةَ، وهداه السَّبيلَ [وبيَّنه] وامتَحَنه بالأمرِ والنَّهيِ).

أعطانا الفطرة السوية فيها: مسلّمات، أن كل موجود له واجد، وأن كل فعل له فاعل، يسر له معرفة خالقه، ورازقه، القوي الغني القادر، ومستحسنات تسهل له طريق الخير، ومستقبحات تبعده عن طريق الشر، وبدون أن يلقن من أي أحد، هداه السبيل وبينه.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ ﴿21﴾

(ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ) أي: ثمَّ قَبَض اللهُ رُوحَ الإنسانِ عِندَ انقِضاءِ أجَلِه، وجَعَل له قَبْرًا يُوارَى فيه بَدَنُه؛ إكرامًا له. موسوعة التفسير

⇦ أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض، قال تعالى: أَلَمْ نَجْعَلْ الأَرْضَ كِفَاتاً أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً)[المرسلات:25-26].

✉ولم يَقُلْ: (فقَبَرَه)؛ لأنَّ القابِرَ هو الدَّافِنُ بيَدِه، والمُقْبِرُ هو اللهُ تعالى؛ يقالُ: قَبَرَ الميِّتَ: إذا دَفَنَه، وأقبَرَ الميِّتَ: إذا أمَرَ غَيْرَه بأن يَجعَلَه في القَبْرِ، قال ابن عاشور: أُسنِدَ الإقبارُ إلى اللهِ؛ لأنَّه ألهَمَ النَّاسَ إيَّاه، وأكَّدَ ذلك بما أمَرَ في شرائعِه مِن وُجوبِ دفنِ الميِّتِ.

✍في الآيةِ دَليلٌ على أنَّ وُجوبَ دَفْنِ أمواتِ النَّاسِ بالإقبارِ دونَ الحَرْقِ بالنَّارِ، كما يَفعَلُ مَجوسُ الهِندِ، ودونَ الإلقاءِ لسِباعِ الطَّيرِ في ساحاتٍ في الجِبالِ مَحُوطةٍ بجُدْرانٍ دُونَ سَقفٍ، كما كان يَفعَلُه مَجوسُ الفُرْسِ، وكما كان يَفعَلُه أهلُ الجاهِليَّةِ بموتى الحُروبِ والغاراتِ في الفيافي؛ إذْ لا يُوارونَهم بالتُّرابِ، وكانوا يَفتَخِرونَ بذلك ويتمَنَّونَه.

✉قال تعالى: ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ مِن نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى أنْ شَرَعَ لعبادِه هذا الدَّفنَ؛ فإنَّ معنى: فَأَقْبَرَهُ أي: جَعَلَه في قَبْرٍ، أي: مَدفونًا؛ سَترًا عليه، وإكرامًا؛ لأنَّ البشرَ لو كانوا إذا ماتوا كسائرِ الميتاتِ: جُثَثًا تُرمَى، لَكان في ذلك إهانةٌ عَظيمةٌ للمَيِّتِ ولأهلِ الميِّتِ.

☰الموت نعمة كبرى تستحق أن نحمد الله عليها وأن نشكره، تخيلوا لو لم يوجد الله تعالى الموت، كيف تصير الحياة؟ لأصبحت مخيفة جدا وستكون نقمة لا نعمة على جميع البشر، ولعم الفساد والقتل وأصبح الموت هو أعظم مطلب البشر ولربما أكل الناس بعضهم. ولتكاسل الناس عن العبادات ولولا الموت ما هَنِأ للإنسان العيش في الأرض، ولا طاب له مقام فيها. فأكرم الله الإنسان بالموت والدفن.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ ﴿22﴾

(ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ) أي: ثُمَّ إذا شاء اللهُ بَعَثَ الإنسانَ بعْدَ مَوتِه، وأحياه يومَ القيامةِ؛ لِيُجازِيَه على أعمالِه. موسوعة التفسير

☜كما أخرجه حيا من بطن أمه، سيخرجه حياً من بطن قبره حين يشاء.

✍ثم يشق لك القبر في يوم البعث، ينشرك يعيد خلقك في قبرك كما خلقك في رحم أمك، وشق لك الخروج منه للحياة الدنيا، سيشق لك القبر لتخرج منه للحياة السرمدية الأبدية.

قال ابن عاشور: رَدٌّ لشُبهةِ الكافِرينَ؛ إذ كانوا يطلُبونَ تعجيلَ البعثِ تحدِّيًا وتهكُّمًا؛ لِيَجعَلوا عدمَ الاستجابةِ بتعجيلِه دليلًا على أنَّه لا يكونُ، فأعلَمَهم اللهُ أنَّه يقَعُ عندَما يَشاءُ اللهُ وُقوعَه، لا في الوقتِ الَّذي يَسألونَه؛ لأنَّه مَوكولٌ إلى حِكمةِ اللهِ تعالى، واستفادةُ إبطالِ قولِهم مِن طريقِ الكِنايةِ.

قال السعدي: بعثه بعد موته للجزاء؛ فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التَّصاريف، لم يشارِكْه فيه مشاركٌ، وهو مع هذا لا يقوم بما أمره الله، ولم يقضِ ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصِّراً تحت الطلب!

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ ﴿23﴾

(كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ الإنسانُ مِن أنَّه قد أدَّى جميعَ ما أوجَبَ اللهُ عليه؛ فلم يَقُمِ الإنسانُ بكُلِّ ما فَرَض اللهُ عليه؛ من العَمَلِ بطاعتِه، واجتِنابِ مَعصِيَتِه. موسوعة التفسير

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿24﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن حيان: لَمَّا عَدَّد تعالى نِعَمَه في نفْسِ الإنسانِ، ذَكَر النِّعَمَ فيما به قِوامُ حياتِه، وأمَرَه بالنَّظَرِ إلى طعامِه، وكيفيَّاتِ الأحوالِ الَّتي اعتوَرَت على طعامِه، حتَّى صار بصدَدِ أن يَطعَمَ

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) أي: فلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى طَعامِه مُتَفَكِّرًا في كيفيَّةِ خَلْقِه، وتيسيرِ أسبابِ حُصولِه. موسوعة التفسير

بَعْدَما بَيَّنَ مِمَّ خُلِقَ الإنسانُ بيَّنَ هنا كيف يُطعِمُه، وفي كِلَيْهِما آيةٌ على القُدرةِ، وقد اتَّفَقت الآيتانِ على خُطُواتٍ ثلاثٍ مُتطابِقةٍ فيهما؛ فصَبُّ الماءِ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ يُقابِلُ دَفْقَ الماءِ في الرَّحِمِ، وشَقُّ الأرضِ للنَّباتِ يُقابِلُ خُروجَه إلى الدُّنيا، وإنباتُ أنواعِ النَّباتاتِ يُقابِلُ تقاديرَ الخَلْقِ المختَلِفةَ، وفي التَّنصيصِ على أنواعِ النَّباتِ مِن: حَبٍّ، وقَضْبٍ، وعِنَبٍ، ورُمَّانٍ، وزَيتونٍ، ونَخيلٍ، وفواكِهَ مُتعَدِّدةٍ، وحدائِقَ مُلْتَفَّةٍ؛ لظُهورِ معنى المغايَرةِ فيها، مع أنَّها مِن أصلَينِ مُشتَرَكينِ: الماءِ مِنَ السَّماءِ، والتُّربةِ في الأرضِ، يُسقى بماءٍ واحدٍ.

كما قال تعالى: أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ [الواقعة: 63 - 67].

﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ﴿25﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان المقصودُ النَّظَرَ إلى صنائعِ اللهِ تعالى في الطَّعامِ، وكانت أفعالُ الإنسانِ وأقوالُه في تكذيبِه بالبَعثِ أفعالَ مَن يُنكِرُ ذلك الصُّنعَ؛ قال سُبحانَه مُفَصِّلًا لِمَا يَشتَرِكُ في عِلْمِه الخاصُّ والعامُّ مِن صنائِعِه في الطَّعامِ، مؤكِّدًا؛ تنبيهًا على أنَّ التَّكذيبَ بالبَعثِ يَستلزِمُ التَّكذيبَ بإبداعِ النَّباتِ وإعادتِه، وذلك في أسلوبٍ مُبينٍ أنَّ الإنسانَ مُحتاجٌ إلى جميعِ ما في الوُجودِ، ولو نَقَص منه شيءٌ اختَلَّ أمْرُه، وبدأ أوَّلًا بالسَّماويِّ؛ لأنَّه أشرَفُ، وبالماءِ الَّذي هو حياةُ كُلِّ شَيءٍ؛ تنبيهًا له على ابتداءِ خَلْقِه

(أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) أي: أنَّا أنزَلْنا ماءَ المطَرِ مِنَ السَّحابِ إنزالًا كَثيرًا. موسوعة التفسير

قال تعالى: وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا [النبأ: 14] .

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ﴿26﴾

(ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا) أي: ثمَّ شَقَقْنا الأرضَ بخُروجِ النَّباتِ. موسوعة التفسير

﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ﴿27﴾

(فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا) أي: فأنبَتْنا في الأرضِ أنواعَ الحُبوبِ؛ كالقَمحِ، والشَّعيرِ، والذُّرَةِ، والأَرُزِّ، وغَيرِ ذلك. موسوعة التفسير

﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ ﴿28﴾

(وَعِنَبًا وَقَضْبًا) أي: وأنبَتْنا فيها العِنَبَ، وأنبَتْنا فيها قتًّا رطبًا تُعْلَفُ به البهائمُ. موسوعة التفسير

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ﴿29﴾

(وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا) أي: وأنبَتْنا في الأرضِ الزَّيتونَ، وأشجارَ النَّخيلِ. موسوعة التفسير

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ ﴿30﴾

(وَحَدَائِقَ غُلْبًا) أي: وأنبَتْنا في الأرضِ بَساتينَ ذاتَ أشجارٍ غَليظةٍ عَظيمةٍ. موسوعة التفسير

قال مجاهدٌ: مُلتَفَّةً. ابنُ عبَّاسٍ: طِوالًا. قَتادةُ: الغُلْبُ: النَّخلُ الكِرامُ.

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ ﴿31﴾

(وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) أي: وأنبَتْنا في الأرضِ أنواعَ الفَواكِهِ الَّتي يأكُلُها النَّاسُ؛ مِن ثِمارِ الأشجارِ، وأنبَتْنا فيها العُشْبَ والكَلَأَ مِمَّا تأكُلُه الأنعامُ. موسوعة التفسير

﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ﴿32﴾

(مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) أي: أنبَتَ اللهُ ذلك كُلَّه؛ مَنفعةً لكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم مِنَ الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، تتمَتَّعونَ بها في الحياةِ الدُّنيا. موسوعة التفسير

قال السعدي: الَّتي خلَقَها اللهُ وسَخَّرَها لكم، فمَن نظَرَ في هذه النِّعَمِ أوجَبَ له ذلك شُكْرَ رَبِّه، وبَذْلَ الجُهدِ في الإنابةِ إليه، والإقبالِ على طاعتِه، والتَّصديقِ بأخبارِه.

كما قال تعالى: وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ [البقرة: 36] .

☜ كل بذرة هي رسالة من الله لكل انسان ليتذكر ضعفه ويتذكر أصله ومصيره، ولكن أكثر الناس استحبوا العمى على الهدى واستغنوا بأنفسهم عن ربهم.

⇦ هذه الثمار متاع الحياة الدنيا لأنكم مسافرين فيها فتحتاجون للمتاع ، ولكن لا تتعلقوا فيها فتصبح غاية وليست وسيلة، فلا تصبحوا كأنعامكم الذين تطعموهم ولا يتفكروا في طعامهم.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ ﴿33﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر ما كان المقصودُ منه أمورًا ثلاثةً؛ أوَّلُها: الدَّلائِلُ الدَّالَّةُ على التَّوحيدِ. وثانيها: الدَّلائلُ الدَّالَّةُ على القُدرةِ على المعادِ. وثالِثُها: أنَّ هذا الإلهَ الَّذي

أحسَنَ إلى عَبيدِه بهذه الأنواعِ العَظيمةِ مِنَ الإحسانِ لا يَليقُ بالعاقلِ أن يتمَرَّدَ عن طاعتِه، وأن يتكبَّرَ على عبيدِه- أتْبَعَ هذه الجُملةَ بما يكونُ مُؤَكِّدًا لهذه الأغراضِ، وهو شَرحُ أهوالِ القيامةِ؛ فإنَّ الإنسانَ إذا سَمِعَها خاف، فيَدْعوه ذلك الخَوفُ إلى التَّأمُّلِ في الدَّلائِلِ، والإيمانِ بها، والإعراضِ عن الكُفرِ، ويدعوه ذلك أيضًا إلى تَرْكِ التَّكَبُّرِ على النَّاسِ، وإلى إظهارِ التَّواضُعِ إلى كُلِّ أحدٍ، فلا جَرَمَ ذَكَرَ القيامةَ

(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ) أي: فإذا جاءت القيامةُ بصَيحَتِها العَظيمةِ الَّتي تُصِمُّ الآذانَ؛ مِن شِدَّةِ صَوتِها. موسوعة التفسير

قال ابنُ عطية: (الصَّاخَّةُ: اسمٌ مِن أسماءِ القيامةِ، واللَّفظةُ في حقيقتِها إنَّما هي لنفخةِ الصُّورِ).

من اسماء يوم القيامة : الطَّامَّةُ – الحَاقَّةُ – الصَّاخَّةُ– الْوَاقِعَةُ– الْقَارِعَةُ – الْغَاشِيَةِ – السَّاعَة – الرَّاجِفَةُ– الرَّادِفَةُ – الصَّيْحَةَ — الآزِفَة.

قال السعدي: إذا جاءت صيحة القيامة، التي تصخ لهولها الأسماع، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ، مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال.

الصاخة : الصاخة هي الصيحة المسمعة التي تبالغ في الإسماع حتى تكاد تصم من يسمع، وقال عكرمة : هي (أي الصاخة) النفخة الأولى.

المتقين لا يفزعون ولا يخافون، بل تتلقاهم الملائكة بالبشرى، قال تعالى (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)[الأنبياء:103]، (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)[فصلت: 31].

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿34﴾

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ) أي: يومَ يَهرُبُ كُلُّ إنسانٍ من أخيه؛ مِن شِدَّةِ الهَولِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ [المؤمنون: 101] .

وقال سُبحانَه: وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ [المعارج: 10 - 14] .

﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ ﴿35﴾

(وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ) أي: ويَهرُبُ كُلُّ إنسانٍ كذلك مِن أُمِّه وأبيه، فلا يَنفَعُهما بشَيءٍ. موسوعة التفسير

قال السعدي: من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه.

﴿وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ ﴿36﴾

(وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ) أي: ومِن زَوجتِه الَّتي كانت مُلازِمةً له في الدُّنيا، ومِن أبنائِه الَّذين هم أحَبُّ النَّاسِ إليه. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: كونُ أقرَبِ النَّاسِ للإنسانِ يَفِرُّ منهم يَقتضي هَوْلَ ذلك اليومِ؛ بحيثُ إذا رَأى ما يَحُلُّ مِن العذابِ بأقرَبِ النَّاسِ إليه، تَوهَّمَ أنَّ الفِرارَ منه يُنجيهِ مِن الوُقوعِ في مِثلِه؛ إذ قد عَلِم أنَّه كان مماثلًا لهم

فيما ارتكَبوهُ مِن الأعمالِ، فذُكِرتْ هنا أصنافٌ مِن القَرابةِ؛ فإنَّ القَرابةَ آصِرةٌ تكونُ لها في النَّفْسِ مَعَزَّةٌ وحِرصٌ على سلامةِ صاحِبِها وكرامتِه، والإلْفَ يُحدِثُ في النَّفْسِ حرصًا على الملازَمةِ والمقارَنةِ، وكِلا هذينِ الوِجْدانَينِ يصُدُّ صاحِبَه عن المفارَقةِ، فما ظَنُّك بهَولٍ يَغْشى على هذينِ الوِجْدانينِ فلا يَترُكُ لهما مجالًا في النَّفْسِ

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ﴿37﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر فِرارَ المرءِ؛ أتْبَعَه بذِكْرِ سَبَبِه

(لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) أي: لكُلِّ واحدٍ مِن أولئك الأقرِباءِ يومَ القيامةِ أَمْرٌ عظيمٌ يُهِمُّه ويَكفيه، فيَشغَلُه عن النَّظَرِ في أمْرِ غَيْرِه. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: قد شغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها، فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء.

قال قتادة : يفر هابيل من قابيل ويفر النبي -ρ- من أمه، وإبراهيم عليه السلام من أبيه، ولوط عليه السلام من صاحبته، ونوح عليه السلام من ابنه لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ [عبس:37] يشغله عن شأن غيره.

وفي الحديث (الصحيح) في أمر الشفاعة ((أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق يقول: نفسي نفسي لا أسألك إلاّ نفسي، حتى إن عيسى بن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتني)) الصحيحين

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تُحشَرونَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا ، فقالت امرأةٌ: أيُبصِرُ أو يَرى بَعْضُنا عَورةَ بَعْضٍ؟! قال: يا فُلانةُ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ!)) صحيح سنن الترمذي

ما حكمة الترتيب في قوله تعالى يَفِرُّ الْمَرْءِ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ.... وهي الفرار من الأبعد وهو الأخ ثم من الأبوين ثم من الزوجة والولد من قبيل الترقي إلى الأحب عادة والأقرب.

هؤلاء الذين عصى ربه من أجلهم ، هم الذين يفرون منه لماذا؟ وقد حذرنا سبحانه من فتنة الولد والمال (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) [الأنفال:28]، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)[المنافقون: 9]. (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) [لقمان: 33].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ ﴿38﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: أنَّ الله تعالى لَمَّا ذَكَر حالَ يومِ القيامةِ في الهَولِ، بَيَّن أنَّ المكَلَّفينَ فيه على قِسمَينِ: منهم السُّعَداءُ، ومنهم الأشقياءُ؛ فوَصَف السُّعَداءَ بقَولِه تعالى

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ) أي: وُجوهُ المؤمِنينَ في ذلك اليَومِ مُضِيئةٌ مُشرِقةٌ. موسوعة التفسير

﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ ﴿39﴾

(ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ) أي: تَضحَكُ سُرورًا، وتَفرَحُ مُستَبشِرةً. موسوعة التفسير

قال السعدي: فأما السعداء، فوجوههم [يومئذ] { مُسْفِرَةٌ } أي: قد ظهر فيها السرور والبهجة، من ما عرفوا من نجاتهم، وفوزهم بالنعيم.

وقال ابن كثير: (مسرورةٌ فَرِحةٌ مِن سُرورِ قُلوبِهم، قد ظهَرَ البِشْرُ على وُجوهِهم).

وقال البِقاعي: (وهي بَيْضاءُ نَيِّرةٌ بما يُرى مِن تبشيرِ الملائكةِ).

⇦وحق لها أن تضحك وتستبشر بعد بشرى الملائكة الذين يتلقونهم من قبورهم.

✍فهذه وجوه مستنيرة منيرة متهللة ضاحكة مستبشرة ، راجية في ربها ، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها ، أو هي قد عرفت مصيرها ، وتبين لها مكانها ، فتهللت واستبشرت بعد الهول المذهل.

كما قال تعالى: فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا [الإنسان: 11] .

وقال سُبحانَه: وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا [الانشقاق: 9] .

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ ﴿40﴾

✍مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا ذَكَر الله سبحانه وتعالى أهلَ السَّعادةِ من المؤمنين؛ ذكَرَ أضْدادَهم . فقال تعالى:

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ) أي: ووُجوهُ الكافِرينَ يومَ القيامةِ يَعْلوها غُبارٌ. موسوعة التفسير

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ ﴿41﴾

(تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) أي: تَغْشاها ظُلْمةٌ وسَوادٌ. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: تغشاها (قَتَرَةٌ) فهي سوداء مظلمة مدلهمة، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها.

كما قال تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ....[آل عمران: 106] .

وقال سُبحانَه: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [يونس: 26-27] .

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ ﴿42﴾

(أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) أي: أولئك هم الكَفَرةُ الَّذين لم تُؤمِنْ قُلوبُهم بالحَقِّ، الفَجَرةُ الَّذين كانوا يَعمَلونَ السَّيِّئاتِ مُتجَرِّئينَ على إتيانِ المحَرَّماتِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: الذين كفروا بنعمة الله وكذبوا بآيات الله، وتجرأوا على محارمه.

قال البقاعي: أتبَعَ وَصْفَ الكَفَرةِ بوَصْفِ الفَجَرةِ، مع أنَّ وَصْفَ الكُفرِ أعظَمُ مِن وَصْفِ الفُجورِ؛ لِما في معنى الفُجورِ مِن خَساسةِ العَمَلِ، فذُكِرَ وَصْفاهم الدَّالَّانِ على مَجموعِ فَسادِ الاعتقادِ وفَسادِ العَمَلِ.

فأما هذه فتعلوها غبرة الحزن والحسرة ، ويغشاها سواد الذل والانقباض ، وقد عرفت ما قدمت فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء ،(أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) ، فهم الذين لا يؤمنون بالله وبرسالاته ، وهم الذين خرجوا عن حدوده ، وانتهكوا حرماته ، حقا ، إنه يوم الهول العظيم فكل يسعى للنجاة، وكل منشغل بحاله يلتمس طريقا للهروب ،من جهنم وأهوالها، والكل يرجو القرب من أبواب الجنة ودخولها.

لنجتهد ونسارع في الخيرات ونعد العدة للقاء الرحمن الرحيم ونستبشر بالكريم سبحانه وعطاءه على قدر كرمه وكرمه لا يخطر على بال بشر فما ظنكم برب العالمين

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: 133]

فنحن نؤمن باليوم الآخر ، وأن فيه أحوال وأهوال وأمور كثيرة؛ لأنه يوم طويل، طوله خمسون ألف سنة، وبرحمته سبحانه وتعالى أن حذرنا ذلك اليوم، وأخبرنا بالتفصيل ماذا سيكون في ذلك اليوم، وهذه آيات من كتاب ربنا تذكرنا آخرتنا، وما نحن مقبلون عليه إن شاء الله في مستقبل أمرنا.

اتّقوا ذلكم الموقف الذي ستقدَّمون فيه للمسألة والمحاسبة، وسيُوقَف كلّ منكم فيه بين يدي الله مُتخلّياً عنه فيه أقربُ قريب وأصدق صديق، ولا تزول قدم امرئٍ فيه حتَّى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن عِلمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه.

فاتّقوا ذلكم الحساب بمحاسبة نفوسكم قبل أن تُحاسَبوا، وبِوزنِها قبل أن تُوزَنوا. قال -ρ-: "الكَيِّس مَن دان نفسَه وعمل لِما بعد الموت، والْعاجز مَن أَتبع نفسَه هواها وتمنّى على الله الأماني".

اتَّقوا ذلكم الحساب باتّقاء محارم الله والوقوف عند حدوده وامتثال أوامره، فإنه -والله- بعد ذلكم الحساب إمَّا فرحة لا حزن بعدها نعيم أبدي، وإمَّا ترحة لا سرور بعدها عذاب سرمدي.

■نسأل الله العفو والعافية إنه جواد كريم [والحمد لله رب العالمين] .